



أحلام مستغامي . . الكاتبة الرائعة . . والمبدعة المناضلة



أحلام مستغامي

الرواية قصيدة مكتوبة على كل البحور.. بحر الحب، وبحر الجنس، وبحر الأيديولوجية، وبحر الثورة الجزائرية بمناضليها ومرتزيها، وأبطالها وقائليها، وملائكتها وشياطينها، وأنبيائها وسارقها..

هذه الرواية لا تختصر ذاكرة الجسد فحسب، ولكنها تختصر تاريخ الوجد الجزائري، والحزن الجزائري، والجاهلية الجزائرية التي أن لها أن تنتهي.. وعندما قلت لصديق العمر سهيل إدريس رأيي في رواية أحلام، قال لي: لا ترفع صوتك عاليا.. لأن أحلام إذا سمعت كلامك الجميل عنها، فسوف تجن.. أجبت: دعها تجن.. لأن الأعمال الإبداعية الكبرى لا يكتبها إلا مجانين!! (لندن 20/8/1995).

وإن وفاء أحلام مستغامي لأبيها فوق الخيال والتصوير، لأنها تعتبره الرمز والقوة والحلم.. فنجدها تهدي روايتها «ذاكرة الجسد» بقولها: «إلى مالك حداد.. ابن قسنطينة الذي أقسم بعد استقلال الجزائر ألا يكتب بلغة ليست لغته.. فاعتالته الصفحة البيضاء.. ومات متأثراً بسطان صمته ليصبح شهيد اللغة العربية، وأول كاتب قرر أن يموت صمتاً وقهراً وعشقا لها..

وإلى أبي.. عساه يجد «هناك» من يتقن العربية، فيقرأ له أخيراً هذا الكتاب.. كتابه».

وتهدي روايتها «فوضى الحواس» قائلة: «إلى محمد بوضياف.. رئيسا وشهيدا، وإلى سليمان عميرات، الذي مات بسكتة قلبية وهو يقرأ الفاتحة على روحه، فأهدوا إليه قبراً جواره، وإلى ذلك الذي لم يقاوم شهوة الانضمام إليهما، فذهب ذات أول نوفمبر بتلك الدقة المذهلة في اختيار موته، لينام على مقربة من خبيثتهما، من وقتها.. ورجال أول نوفمبر قهرا يرحلون.. من وقتها وأنا إلى أحدهم أوصل الكتابة، إلى أبي.. مرة أخرى».

وتواصل أحلام مستغامي التعلق بأبيها، تاريخاً وذكراً، ومعنى.. وتكتب في إهداء روايتها «عابر سرير»: «إلى أبي.. دوماً، وإلى شرفاء هذه الأمة ورجالها الرائعين، الذين يعبرون بأقدارهم دون انحناء، متشبثين بأحلام الخاسرين، وإليك في فتنة عبورك الشامخ، عبورك الجامح، يوم تعثر بك قدري.. كي تقم».

وفي كتابها «قلوبهم معنا وقنابلهم علينا»، تهدي إليهم هذه الكلمات:

«إلى رفاق الأمنيات الجميلة الشاهقة.. في عروبة سابقة أهدي كل هذا الأمل.. وخزدة الأحلام هذه، وإلى القادمين الذين ما رأوا لحظة سقوط تاريخنا عن جواده.. تذكروا.. أني بكيت».

أما كتابها «نسيان، Com» فتهديه هكذا: «أهدي هذا الكتاب أولاً إلى قرأسته كتي، فلا أعرف أحداً انتظر إصداراً جديداً لي كما انتظروه».

أنا مدينة لهم بانتشاري، فلولاهم ما فاضت المكتبات بألاف النسخ - المقلدة طبق الأصل - عن كتي.

يسعدني أن يجد الكل في هذا الكتاب باب رزق «الله يجعلني غابة والناس في حطابة».

المجد للصوص.. جميعهم، هذا زمن الأيدي التي تنهب لا تلك التي تكتب.

ثم.. إلى صديقتي تلك، إلى نبل ترفعها أرفع هذا الكتاب، وإلى النساء اللواتي عقدن قرانهن على الانتظار، وإلى «الرجال الرجال» الذين بمجيئهم تتغير الأقدار».

هذه بعض من ملامح أحلام مستغامي الكاتبة الرائعة والمبدعة المناضلة.. التي كتبت.. وتكتب.. وتواصل الكتابة.. من أجل الناس الطيبين..

وصباح يوم الثلاثاء الماضي ودعتنا عائدة إلى بيروت، بعدما استعادت في تونس طفولتها الأولى..

وصافحت جمهورها من القلب.. وسعدت مرتين.. مرة بوفاء هذا الجمهور العظيم.. ومرة بلقاؤها بوالدتها التي جاءت خصيصاً من الجزائر لرؤيتها ولتحضنها

أياماً فوق الأرض التي استقبلت «أحلام» منذ 57 سنة لأول مرة يوم 13 أبريل 1953.

النجاح، في كل مجال من مجالات هذه الحياة أسباب وعناصر قوة، في مقدمتها العمل المتواصل والكث الدائم والجهد الكبير مع الصبر على الأذى والصمود أمام العراقيل وتجاوز عقبات الاحباطات والتحدي بأوسع وأدق معناه.. تحدي أعداء العمل والنجاح والتفوق والتميز..

وما حققته الكاتبة والمبدعة العربية الكبيرة أحلام مستغامي، التونسية المولد والجزائرية الأصل، مثال حي على النجاح الحقيقي والطبيعي الذي يأتي بالعرف والتعب والتضحية..

وفي الدورة الثامنة والعشرين الأخيرة لمعرض تونس الدولي للكتاب لمسنا نجاح هذه المرأة اللطيفة والرفيعة والمتواضعة والطيبة وتأكدنا من محبة الناس لها ومن إعجابهم الذي لا يوصف بكتاباتنا.. هذه الكتابات التي جعلت منها بعد أكثر من أربعين سنة من النضال الثقافي والأدبي الكاتبة العربية الأولى.. فهنيئاً لها على نجاحها وعلى الحب الطوفاني الذي غمرها الناس به..

والحقيقة أن وراء هذا النجاح رصيد مترام من العمل الطويل يعود إلى سنوات السبعينات.. وليس وراءه آلة أو آلات إعلامية كما يدعي البعض منهم ومنهن.. وليس وراء الأمر شركات أو أموال.. إن المسألة ببساطة ووضوح أن هذه المرأة تعمل وتعمل وتعمل.. وكل من يعمل لا يخيب ولا يفشل..

وأحلام مستغامي مبدعة نجحت في الاقتراب من الناس ووصلت إليهم وأصبحت نضجهم وحسبهم وضميرهم ووجدانهم.. وصونهم أيضاً، لأنها واحدة منهم.. وقالت لي إنها امرأة بسيطة تكتب بصقتها ولا تعتمد على موهبتها في التعبير عنهم.. وهي لا تعتبر نفسها «نجمة» ولا تحب هذه الكلمة.. كما أنها لا تحب كلمة «النجومية» التي ألصقها بها بعض الذين لا يعرفون تاريخ ميلادها.. وقالت لي إن «النجومية» تطلق على الفنانين ولا يمكن أن تطلق على الكتاب..

لكن أحلام مستغامي انبهرت في تونس بمحبة التونسيين والتونسيات لها.. الذين قدموا لها ما تستحق من المحبة، وهو ما أسعدها وأفرحها.. فهذه المحبة الجماهيرية التلقائية لا علاقة لها بالآلة الإعلامية إطلاقاً.. وكما قالت لي: «الإعلام لا يصنع كاتباً.. هذه المحبة هي نتيجة لعمل أدى إلى نجاح».

وما هو معروف انطلقت أحلام مستغامي شاعرة في السبعينات من القرن الماضي.. وكنا نستمع إليها تقرأ قصائدها وخواطرها من إذاعة الجزائر بصوتها الملائكي الجميل.. ثم هاجرت إلى فرنسا حيث حصلت على شهادة الدكتوراه في بداية الثمانينات في علم الاجتماع من جامعة السوربون في باريس بتوجيه وإشراف من المستشرق المعروف جاك بارك.. ولا ننسى أنها متخرجة قبل ذلك من كلية الآداب بالجزائر.. إذن هي صاحبة تكوين جامعي عال في اختصاص الأدب العربي..

ومن باريس تحولت إلى بيروت واستقرت هناك مع زوجها الدكتور جورج الراسي الكاتب والصحفي اللبناني المعروف الذي عرفناه مشرفاً على القسم الثقافي لأكثر من منبر إعلامي مثل مجلات «البلاغ» و«الوطن العربي» و«الدستور»..

وفي بيروت وأجوائها الأدبية والثقافية والإعلامية استفادت أحلام مستغامي من هذه الأجواء المشجعة والداعمة والمساعدة على الكتابة والخلق والإبداع، واصلت أحلام مستغامي مسيرتها وطورت تجربتها الأدبية واقتحمت عالم الرواية وقدمت لنا ثلاثية روائية رائعة هي «ذاكرة الجسد» و«فوضى الحواس» و«عابر سرير».. من أبعد ما ظهر على الساحة الأدبية العربية بين نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي.. ثم أضافت كتاب «نسيان، Com» (وهو ليس رواية).. بالإضافة إلى كتاب آخر عنوانه «قلوبهم معنا وقنابلهم علينا».. وهي تستعد لإصدار روايتها الرابعة «الأسود يليق بك» (بكسر الكاف).

ومن خلال عملية بسيطة حول أهمية كتب أحلام مستغامي ومبيعاتها المرتفعة جداً، نجد ما يلي:

رواية (ذاكرة الجسد): صدرت إلى حد الآن في 25

طبعة منذ 1992 تاريخ طبعها الأولى.
- رواية «فوضى الحواس»: صدرت إلى حد الآن في 18
طبعة بعد صدورها لأول مرة سنة 1997.

- رواية «عابر سرير»: صدرت هذا العام في طبعتها
الثامنة بعد ما ظهرت للمرة الأولى سنة 2003.

- كتابها «نسيان، Com» الذي جاء في طبعته الأولى
سنة 2009، صدر في أقل من عام إلى حد الآن في ثلاث
طباعات.

وكتابها «قلوبهم معنا وقنابلهم علينا» الذي صدر
في عام 2009، ظهرت منه في أقل من عام كذلك ثلاث
طباعات.

ومن الطبيعي أن اختارتها مجلة Forbes الأمريكية
سنة 2006 بين النساء العشر الأكثر تأثيراً في الوطن
العربي والأولى في مجال الأدب لأن مبيعات كتبها
تجاوزت مليونين و300 ألف نسخة وحسب مجلة
Arabian Business فإن أحلام مستغامي احتلت
المرتبة 49 بين أقوى 100 شخصية عربية، سنة
2007.

هل هذا كله لا يكفي للاعتراف بقيمة هذه المبدعة
العربية والعالمية التي ترجمت نصوصها إلى العديد
من اللغات؟

والحقيقة أن أحلام مستغامي ليست فقط كاتبة
عن الحب وعن جدلية الصراع العاطفي بين المرأة
والرجل.. فهي، إلى جانب ذلك مثقفة مناضلة وكاتبة
عربية ملتزمة بقضايا أمتها العربية منذ أربعين
سنة، وذلك بدميها لأن والدها مناضل جزائري قاوم
الاستعمار الفرنسي بضراوة.

يقول عنها الزعيم أحمد بن بلة: «إن أحلام
مستغامي شمس جزائرية أضاءت الأدب العربي. لقد
رفعت بانتاجها الأدب الجزائري إلى قمة تليق بتاريخ
نضالنا. فآخراً بقلمها العربي، افتخارنا كجزائريين
بعروبتنا» (جنيف، 2002/2/12).

ويقول عنها نزار قباني: «قرأت رواية «ذاكرة الجسد»
لأحلام مستغامي، وأنا جالس أمام بركة السباحة في
فندق سامرلند في بيروت».

بعد أن فرغت من قراءة الرواية، خرجت لي أحلام
من تحت الماء الأزرق، كسمكة دولفين جميلة، وشدت
معني فنجان قهوة وجسدها يقطر ماء..

روايتها دوختني.. وأنا نادراً ما أنوخ أمام رواية
من الروايات.. وسبب الدوخة أن النص الذي قرأته
يشبهني إلى درجة التطابق، فهو مجنون، وموتر،
واقتماش، ومتوحش، وإنساني وشهواني.. وخارج
على القانون مثلي، ولو أن أحداً طلب مني أن أوقع
إسمي تحت هذه الرواية الاستثنائية المغتسلة بأمطار
الشعر.. لما ترددت لحظة واحدة.

هذه كانت أحلام مستغامي في روايتها (تكتبني)
دون أن تدري.. لقد كانت مثلي تهجم على الورقة
البيضاء، يجاملية لا حد لها.. وشراسة لا حد لها..
وجنون لا حد له..